للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٤١ —

رسائل القراء اليه :

الحامي الشاعر الأستاذ ابراهيم ... شاب لا خلق ودين ، وفيه اعتزاز بالعربية والاسلام ؛ فهو من ذلك يحب الرافعي وينتصر له ، ويتتبع بشوق وشغف كل ما ينشر من كتب ومقالات . ولكنه مع ذلك يحب العقاد وينتصر له ، ويراه صاحب مذهب في الشعر ورأى في الأدب ، جديراً بأن يتأثر خطاه ويسير على نهجه. وليس عجيبا — فيما أظن — أن يجتمع الرأى لأديب من الأدباء على محبة الرافعي والعقاد في وقت معاً ، كما أنه ليس عجيبا أن يتعادى الرافعي والعقاد أو يتصافيا ما دام لكل منهما في الأدب طريق ومذهب ؛ ولن يمنع ما بينهما من العداوة ، أو من الصفاء ، أن يكون لكل منهما قراؤه المعجبون به ، أو يكون لهما قراء مشتركون يُعجبون بما ينشىء كل منهما في فنون الأدب ؛ وإنما العجيب أن يبلغ إعجاب القارىء بالكاتب الذى يؤثره إلى درجة التعصب ؛ فلا يعتبر سواه ، ولا يعترف لغيره أن يكون له مكان بين أهل الأدب ...

على أن شأن صاحبنا الحامي الشاعر الأستاذ ابراهيم مع الرافعي والعقاد يبعث على أشد العجب وأبلغ الدهشة ... إنه يحب الرافعي ويؤثره ، ويعجب به إعجابا يبلغ درجة التعصب ؛ وإنه يحب العقاد كذلك ويعجب به ويتعصب له ... لكل منهما مكانه من نفسه ، مكانٌ لا يتسع إلا له ، ولا يزاحمه فيه خصمه ؛ ولكنه يحبهما معاً ، ويعجب بهما معاً ، ويتعصب لهما معاً !

رأيان يتوائبان ، وشخصيتان تتناحران ، وإسراف في التعصب لكل منهما على صاحبه ؛ فأين يجد نفسه بين صاحبَيْه اللذين يؤثر كلاً منهما بالحب والاعجاب والاستاذية ؟

صورة طريفة وقفتُ عليها فيما وقفتُ بين رسائل الرافعي !

هذه رسالة من الأستاذ ابراهيم إلى الرافعي يقول فيها [1] :

« سيدى ، إننى أحبك ، وأعجب بك ، وأتعصب لك ؛ ولكن موقفك من العقاد ياسيدى ... ليت شعرى لماذا تتخاصمان ؟... لقد كنت على حق ... ولكن العقاد على حق ... هل تأذن لى أن أكون رسول السلام بينكما ؟ »

ثم لا تمضى أيام حتى يعود فيكتب إلى الرافعي رسالته الثانية :

« معذرة ... إنك لتتجنى على العقاد تجنيا ظالما ، فما لك وجه من الحق فى عدائه والحملة عليه . لقد عقمت العربية فلم تنجب غير العقاد ... وإنك أنت ... إنك كبير في نفسى ، كبير جداً ، وإنى لأقلب تاريخ العربية بين يدىّ فلا أجد غير الرافعي ... أنت ... والعقاد ... أين ترى يكون اللقاء ؟ »

وعلى هذا المثال قرأت لصاحبنا الحامى الشاعر بضع رسائل بين ما خلف الرافعي من أوراق ، تملأ النفس عجبا ودهشة . وآخر ما وصل إلى الرافعي من رسائله ، رسالتان ، كتب إحداهما فى المساء ، وكتب الثانية فى صباح اليوم التالى ؛ ولولا خط الكاتب ، ونوع الورق ، وخاتم البريد ، لما حسبتهما إلا رسالتين من شخصين لو أنهما التقيا فى الطريق لتضاربا بالأكف ... !

على أن الرافعي مع ذلك كان يرد على رسائله ! وودت لو ينشر صاحبنا بعض رسائل الرافعي إليه !

* * *

والآنسة الأديبة ف . ز . معلمة في إحدى مدارس الحكومة كان أبوها زميلا للرافعي في محكمة طنطا ، وكان بينهما صلة من الود ، فلما مات لم تنس ابنته صديق أبيها ، فكانت تستعينه فى بعض شؤونها ، ومن ثمة نشأت بينهما مودة ، فكانت تراسله ويراسلها ، ومن رسائلها إليه كان له علم جديد فى شئون وشئون .

صحبته إلى زيارتها مرة فى ليلة من ليالى الشتاء ، مع الصديقين كامل حبيب وسعيد الرافعي ؛ فلقيناها مع بعض صديقاتها ، وكانت جلسة طالت ساعات ، أعتقد أن الرافعي قد أفاد منها بعض معانيه فى قصة « القلب المسكين ! »

* * *

(١) ليست الرسائل تحت يدى فى اللحظة التى أكتب فيها هذا الفصل ، ولكن ما أحكيه بعد هو ترجمتها فى نفسى كما قرأتها منذ قريب .

. . . وقد أنشأت هذه الرسائل بين بعض قرائه وبينه صلات عجيبة من الود ؛ فهو منهم أب وصديق ومعلم ومشير ؛ وجلس على « كرسي الاعتراف » فترة غير قصيرة من حياته ؛ تفتحت فيها عيناه على كثير من حقائق الحياة لا يبلغ أن يصل إليها من رحل وطوف . وكان له في كل دار أذن، وعلى كل باب رقيب عتيد ! ولست بمستطيع أن أفسر سرّ هذه الثقة العجيبة التي ظفر بها الرافعي من قرائه ؛ ولكني أستطيع أن أجزم بأنه كان أهلا لهذه الثقة ؛ فما أعرف أنه باح بسرّ أحدٍ فساءه أو عرّف به ، وما أطلع على رسائل قرائه أحداً غيري إلا قليلا من الرسائل كان لا يرى بأساً من إطلاع نفر قليل من أصحابه عليها لغرض مما يستجرّه إليه بعض الحديث في موضوعها ؛ بل إن كثيراً من هذه الرسائل قد أخفاه عني ـ وما كان بيني وبينه حجاب أو سرّ ـ فما عرفت خبرها إلا بعد موته . ويستطيع أصحاب هذه الرسائل أن يطمئنوا إليّ ؛ فستظل أسرارهم ـ في يدي ـ مصونة عن عيون الفضوليين ، فلن أتناول الحديث عنها إلا من حيث يدعوني الواجب لجلاء بعض الحقائق في هذا التاريخ .

وكان له مراسلون داعون . . يجدون الكتابة إليه جزءاً من نظام حياتهم ، فلا تنقطع رسائلهم عنه ، ولا يخفى عليه شيء من تطوّرات حياتهم ، وقد أكسبهم طول العهد بالكتابة إليه شيئاً من الأنس والاطمئنان إليه كما يطمئنون إلى صديق عرفوه وجرّبوه وعايشوه طائفةً من حياتهم ؛ وإن القارىء ليلمح في هذا النوع من الرسائل الدّورية التي يبعث بها إليه هؤلاء الأصدقاء الغرباء ، مقدار ما أثر الرافعي في حياتهم منذ بدأت صلتهم به ، فتطورت بهم الحياة تطورات عجيبة ؛ وأدّى الرافعي إليهم دَينه وأثر فيهم بمقدار ما كان لهم من الأثر في أدبه وفي حياته الاجتماعية . وإني لأضرب مثلا لواحدة من هؤلاء الأصدقاء :

فتاة من أسرة كريمة في دمشق ، نشأت في بيت عز وغنى وجاه ، وهي كبري ثلاث نشأن نشأة يفاخرن بها الأتراب؛ ثم تقلبت بهن الحياة فاذا هن بعد الغنى والجاه ناسٌ من الناس . . واضطرت الكبرى أن تخرج إلى الميدان عاملة ناصبة لتعول أسرتها ، وكان لها من ثقافتها وتربيتها مُعينٌ ساعدها دون أختيها في ميدان الجهاد ؛ وعلى أنها كانت أجل الثلاث وأولاهن بالاستقرار في بيت الزوج الكريم فقد سبقتها أختاها إلى الزواج والبنين والبنات وظلّت هي . . وما كان ذلك لعيب فيها ولكنه سرٌّ لم يلبث أن انكشف لعينيها : لقد كانت هي وحدها ومن دون أختيها التي تستطيع أن تعول أسرتها لأنها عاملة . . . وتألمت حين عرفت السرّ ولكنها كتمت آلامها وظلت « صابرة » ، ومضت الأيام متتابعة والأماني تخلف موعدها ؛ وتحركت فيها غريزة الأمومة ولكنها قمعتها بإرادة وعنف ومضت تصارع الطبيعة وتتحدى القدر بمزيجة لاتلين ؛ ولكنها لم تلبث أن أحسّت بوادر الهزيمة بعد طول الكفاح فتسرعت قلمها السذب وكتبت رسالتها الأولى إلى الرافعي بإمضاء « الصابرة »

وقرأ الرافعي رسالتها ثم قص عليّ خبرها وتندّت عيناه بالدموع : يالها من فتاة باسلة !

وأجابها الرافعي على رسالتها بتذييل صغير في حاشية إحدى مقالاته في الرسالة . . وعادت تكتب إليه وعاد يجيبها وتوالت رسائلها ورسائله وقد كتم اسمها وعنوانها عن كل أحد ـ وكانت كتبته إليه في ورقة منفصلة في إحدى رسائلها ليمزقه وحده إن عناه أن يحتفظ برسائلها ـ وكان لها الرافعي كما أرادت : أباً وصديقاً ومرشداً ومشيراً ؛ ولم يأبَ عليها في بعض رسائله أن يتبسط في الحديث إليها عن قصة «القلب المسكين» لعلها تجد فيما يكتب إليها من شئونه عزاء وتسلية.. وتعزّت المسكينة عن شيء بشيء، وثاب إليها الاطمئنان والشعور بالرضا. وبدا في رسائلها لون جديد لم يكن في رسالتها الأولى. وأخذت تكتب إليه عن كل شيء تحس به أو تراه حولها، وتستشيره فيما جلّ وما هان من شئونها، في سفرها ، وفي إقامتها ، وفي رياضتها ، وفي عملها ، وفي يقظتها ، وفي أحلامها . . في كل شيء كانت تكتب إليه ، سائلة ومجيبة ، ومخبرة ومستشيرة ، حتى في صلاتها مع صديقاتها وأصدقائها ، وفي الخطّاب الذين يطرقون بابها يطلبون يدها . . ولم يكن يضنّ عليها بشيء من الرأي أو المشورة . .

وكان للصابرة جزاء ما صبرت ؛ وتحققت أمانيها على أكمل ما تتحقق أماني إنسان ، وجاءها العروس الذي لم تكن أحلامها

تتطاول إليه فى منامها ، وبرق فى إصبعها خاتم الخطبة ، فانبهرت منه عيون ! لا أريد أن أذكر من صفات خطيبها حتى لا أعرِّف بها وبه ، وليس من حقى أن أكشف ما تريد هى أن يظلّ مستوراً ... لو قلت إن خطيبها كان وزيراً لما بعدْتُ !

واستمرت تكتب للرافعى والرافعى يجيبها ... حتى رسائل خطيبها إليها كانت تبعث بها إلى الرافعى ليشير عليها كيف تجيب، وحتى برنامجها قبل الزفاف وبعده كان بمشورة الرافعى ورأيه ...

وجاءته آخر رسالة منها مؤرخة فى ٣/٤/١٩٣٧ (نعى الرافعى فى ١٠/٥/١٩٣٧) تقول فيها :

« الصديق الكريم ...

« ما أحلى دعوتك يا صديقى وما كان أشدها تأثيراً على نفسى ! لقد شعرت وأنا أقرؤها بسرور عميق ، وتركز فى ذهنى أن هذه الدعوة مقبولة ... ما أسعدنى إذا صرت فى المستقبل أما

« أعتقد أنك تعرف تماماً أن حنينى للزواج فيما مضى وتمردى وثورتى على هذه الحياة ، لم تكن إلا لأنى رأيته وسيلة للحصول على الطفل ؛ فقد تنبهت فىّ غريزة الأمومة بشكل هائل ؛ تصور يا أستاذى ، صرت أكره الأطفال لأنى ليس لى بينهم ولد ؛ وكنت إذ أرى أمًّا تعانق طفلها وتضمه إلى صدرها أحس بألم مرير يحز بقلبى ويكاد يقطعه . وكثيراً ما كنت أتشاغل وأشيح بوجهى حتى لا تقع عينى على هذا المنظر . لست حسودة والله ، ولكن شدة إحساسى كانت تحملنى بهذا الوضع ... أما الآن فأنا مسرورة لأقصى حدود السرور ، وأتمنى لو أنثر الخير والسعادة على الجميع ... ...

« ... والله يعلم أن ليس لى أى غاية مادية من وراء هذا الزواج ، وليس قصدى منه إلا الحماية والستر ، لأنى مللت ومرض قلبى من فضول الناس ... »

وكانت على نية زيارة مصر لتزور الرافعى مع زوجها ، اعترافاً بحقه عليها ، ولكن القدر لم يمهله حتى يحين الموعد ، وحان أجله قبل أن ينظر بعينيه الفتاة التى تبناها على بعد الدار وشغلته أحزانها بضع سنين ، فلما ابتسم لها القدر وتحققت أحلامها ناداه أجله وما شاركها ابتسامة الفرح وتهاني المسرة ... !

تقول له فى رسالتها المؤرخة ١٥/١/١٩٣٧ :

« الصديق الكريم ...

« ... ولماذا أخشى هذه المقابلة يا أستاذ ؟ وهل أنت مخيف لهذه الدرجة ... ! على كل حال إذا وجدت ما يرعبنى فسأختبئ وراء (زوجى) ولا بد أنه يحسن الدفاع عنى . لا ، لا ، سألبس درعاً متينة تقيني (شرّ) هذه المغناطيسية القوية ، ولكنى أخاف يا أستاذى أن يكون الحديد أكثر انجذاباً ، وأكون حينئذ أسأت من حيث أردت الاحسان ... صحيح أننى معجبة ، ولا أزال ، وسأبقى دائماً ، ولكن ألا ترى أن الاعجاب و ... قد يتفقان أحياناً وقد يختلفان ؟ ثم أليس ! ... معان كثيرة وأساليب عديدة ... ؟

« تريد رأيى فى صاحب القلب المسكين ؟ أنت تعرفه جيداً فلماذا تريد إحراجى ... ؟

« الجمال ليس مدار بحثنا ، وليس له أهمية قل أو كثر ، ومع ذلك فصاحب القلب المسكين يتمتع بقسط وافر منه . إسمع ، سأبدى رأيى . لا لا ، ما بدّى أقول ، أستحى ... ! »

وكانت تعرف من أمره مع (فلانة) ما قص عليها فى رسائله وفى رسائلها حديث كثير عنها ، وقد زارتها مرة عن أمره لتنبئه بخبرها ...

وأعتقد أن فى رسائله إليها ما يكشف بعض الغموض فى قصة الرافعى و (فلانة) ويكون فيه برهان إلى براهين لدينا ؛ فحبذا أن تتفضل السيدة الكريمة بالنزول عن حقها فى هذه الرسائل فتهديها إلينا لتتم لنا بهذه الحلقة المفقودة سلسلة التاريخ !

إنها أديبة وعالمة ، وإنها بذلك لتعرف حق التاريخ وحق الأدب عليها فى هذه الرسائل ، ولها علينا ما تشترط فنُوفيه ، فلعل صوتى أن يبلغ إليها فى مأمنها . ضمن الله لها سلامتها وحقق لها ما بقى !

* * *

هذه قصة فتاة يجد القارىء بين أولها وآخرها أشتاتاً من تاريخ الرافعى ؛ وفيها مثال يبين معنى ما سميته (النقلة الاجتماعية) فى حياة الرافعى بما كان بينه وبين قرائه من صلة الرسائل . على أن هذه القصة بخصوصها كان لها من عناية الرافعى حظ أىّ حظ. وقد كان على أن يكتب — بما اجتمع له من فصول هذه القصة —